جدل الثقافتين بين

الوافد و الموروث

لا ينفي أحد من العلماء وبخاصة الغربيين منهم أن أصل الحضارة الغربية يعود إلي الحضارة العربية. فالحضارة العربية هي أم الحضارات الإنسانية كافة بلا منازع. فقد بدأت أول حضارة إنسانية عربية في بابل في سوريا والعراق، وإثر الزحف الفارسي الذي أتى من الشرق، هاجر قسم كبير من العلماء العرب من بابل إلى اليونان حيث كان اليونانيون، شأنهم كشأن كل أوروبا في ذلك العصر، لا يزالون يعيشون في الكهوف، فنشأت حضارة اليونان العريقة، وتطورت اليونان فجأة بشكل سريع جداً وغير متدرج ولم يفهم إلا إلى أن ربط بتشربهم وتلقنهم حضارة بابل العربية التي كانت قد قطعت أشوطا كبيرة في الإرتقاء العلمي من العلماء العرب الذين نزحوا إثر الغزو، وكانت اليونان أرضا خصبة ومستقرة شكلت بيئة مناسبة لبروز إبداعات في مختلف المجالات العلمية والفلسفية. أما مصطلح الحضارة الغربية فهو تعبير يقصد به الثقافة المتوارثة عن أوروبا بوجه الخصوص في مختلف أنحاء العالم وبالذات في دول العالم الجديد، وتتشابه خصائص هذه الحضارة في العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية والأنظمة السياسية ولاحقاً أصبحت تشمل الخصائص الحرفية والتكنولوجية.

أيضاً كانت المنطقة العربية مهداً للأديان السماوية الثلاثة ومنها إنتقلت إلي باقي أجزاء العالم. أي أن المسيحية في وقت من الأوقات عمت المنطقة العربية وأوروبا وبالتالي فإن الموروث الديني للحضارة الغربية الحالية كان عربيّ المنشأ الشئ الذي يفرض نوعاً من المساواة في نقطة البداية بين الحضارات العربية والغربية أنذاك، فالإسكندرية مثلاً كانت لا تقل تطوراً عن روما بل ويذهب العديد من المؤرخين إلي أن تطور الحضارة اليونانية والتي سبقت الحضارة الرومانية إنتقل إليها من حضارة الإسكندرية. وهنا يظهر أثر الموروث الثقافي لكلاً من الحضارتين الرومانية التي تحولت من الوثنية

واليهودية إلي المسيحية والحضارة العربية التي تحولت إلي المسيحية وتعاملها مع هذا العامل الجديد.

وإذا ما حاولنا أن نقارن ما بين ظهور المسيحية وإنتقالها إلي الغرب الأوروبي وبين ظهور الإسلام في المنطقة العربية نجد مفارقة غريبة خصوصاً إذا ما حاولنا إسقاطها علي واقع الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية اليوم. فبتشكل الحضارة الجريكو-رومانية والغرب بصفة عامة وتأثرها بالمسيحية دخلت في مرحلة حركات الإضطهاد العشر الكبرى ثم تلتها العصور الوسطي ثم محاكم التفتيش Inquisitions في القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك بعد عصر الإيمان. وبالمقابل نجد أن ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وإنتشارة في المنطقة العربية وأفريقيا قد أدخل مجتمعاتها في مرحلة نهضة حضارية وثقافية وعلمية في الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الغربية لا تزال تعاني من تاثيرات العصور المظلمة الشئ الذي شكل أكبر الأثر في سعي الغرب إلي التأثر بالحضارة العربية الإسلامية المزدهرة.

فإذاً كانت كفة التطور تميل بصورة أساسية إلي الحضارة العربية الإسلامية منذ بداياتها علي العكس من الحضارة الغربية التي أدخلتها المسيحية في عصور مظلمة علي الرغم من تقدم هذه عن تلك بنحو سبعة قرون.

وإذا حاولنا إسقاط جدل التاريخ الهيجلي علي كلاً، نجد أن مرحلة إطروحة الحضارة الغربية تميزت بالسلبية أولاً ثم جاء نفيها بداية من نهايات القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر مع عصر التنوير وعصر النهضة وما تلاها وحتي اليوم، و ذلك مع إسقاط الحوادث والحروب التاريخية التي تلت تلك الفترة وحتي التاريخ الحديث والمعاصر؛ فهي وإن مثلت مظهراً من مظاهر الإنحطاط الحضاري للبعض فإن منظورحتمية الصراع في التاريخ الإنساني يجدها ضرورية لتطور الحضارات ولكن النقطة المحورية في تاريخ الغرب من الناحية الثقافية بداية من عصر التنوير وعصر النهضة وحتي الآن انها لم تتعرض لمرحلة إنقطاع ثقافي كما هو الحال مع الثقافة العربية الإسلامية، والتي

كما ذكرنا بدأت بمرحلة التطور الثقافي الإيجابي التي شكلت إطروحتها. وبالتالي فإن هدم سلطة الكنيسة قد مثلت النقطة المحورية في الحضارة والثقافة الغربية في الإنتقال إلي مرحلة نفي الاطروحة، وهي لا تعني هدم سلطة الدين في حد ذاته بقدر ما تعني هدم سلطة النظام الأكليركي والبابوي المتحكم في النظم السياسية. وإتجهت أوروبا في العصور الوسطى إلى الزهد في الدنيا، والتبتل إلى الآخرة، وذلك نتيجة هيمنة رجال الكنيسة على مختلف شؤون الحياة، باعتبارهم علماء في الدين وفلاسفة في القانون الروماني، فحاربوا المفكرين، وحاكموهم بقسوة، واحتكروا زعامة المجتمع، فتفشت فيه الخرافات وعم الجهل، فلم ينتفع الجمهور باللغة اللاتينية، لأنها كانت محتكرة لدى طائفة من رجال الكنيسة ولم تكن صناعة الورق، أو فن الطباعة معروفين في أوروبا، ولهذا كان المجتمع الأوروبي متخلفاً ويئن تحت وطأة الإقطاع، ويعاني من ويلات الحروب الإقطاعية والتجزئة السياسية. والنهضة بمفهومها الخاص هي حركة إحياء التراث القديم، أما بمعناها الواسع فهي عبارة عن ذلك التطور القديم في كل من الفنون والآداب والعلوم، وطرق التعبير، والدراسات، وما صاحب ذلك من تغير في أسس الحياة الإجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية.وهى عملية فكرية تتجاوز إنغلاق فترة زمنية سابقة. أما عصر النهضة فهو مصطلح يطلق على فترة الإنتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون الرابع عشر و الخامس عشر والسادس عشر، ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام 1453 م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث الإغريق والرومان والعرب. كما يدل مصطلح عصر النهضة على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن الرابع عشر، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

أما الحضارة العربية الإسلامية و ثقافتها فقد بلغت أوج إزدهارها في العصر الذهبي للإسلام والذي يمتد لغاية القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي. خلال هذه الفترة، قام مهندسي وعلماء وتجار العالم الإسلامي

بالمساهمة بشكل كبير في الحقول التالية: الفن والزراعة والاقتصاد والصناعة والأدب والملاحة والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا، من خلال المحافظة والبناء على المساهمات السابقة وبإضافة العديد من اختراعاتهم وابتكاراتهم. إذ خلق الفلاسفة والشعراء والفنانين والعلماء والأمراء المسلمون ثقافة فريدة من نوعها والتي أثرت بدورها على المجتمعات في كل القارات. دخلت تدريجياً بسقوط الدولة العباسية إلي مرحلة نفي الأطروحة والتي أستمرت حتي الأن. أما ظهور الدولة العثمانية وإعتبارها بمثابة نفي النفي فهي كما تناولناها سابقاً لا يمكن إعتبارها كثقافة حضارة عربية بالإضافة إلي التغيرات التي طرأت علي بنية الموروث الإسلامي، بل تمثل مرحلة إنقطاع ثقافي للحضارة العربية عن جذورها.

أما المرحلة الثالثة من جدل التاريخ و هي نفي النفي، فنجد ان العديد من مفكري الغرب يتجهون إلي إعتبار أن عملية إنتقال الغرب من طور الحضارة إلي المدنية بداية من أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تُمثل النقطة المحورية لبداية دخول الغرب هذه المرحلة، فالغرب وإن تطور مادياً وتكنولوجياً وحتي سياسياً فإن شقه الروحي يتجه إلي الإنحطاط بصورة متسارعة. وفي ظل هذا الإنتقال للثقافة الغربية لمرحلة نفي النفي لا تزال الثقافة العربية في إنتظار دخولها لمرحلة نفي نفيها. ولكن ظهور تكنولوجيا الإتصالات قد أوجد نوعاً من أنواع الخلل في التطور الطبيعي لجدل التاريخ وفق المفهوم الهيجلي. فالثقافة العربية الإسلامية اليوم أصبحت أكثر تأثراً بالثقافة الغربية من ذي قبل وبصورة تهدد إمكانية نهضتها من جديد، وذلك علي الرغم من إجماع العالم علي أن موروث ووافد المنطقة العربية نفسه هو في الأساس عربيّ المنشأ ولكن يمكن الإختلاف في منهجية تعامل كلاً من العقل العربي الإسلامي والعقل الغربي مع موروثه ووافده.